القصص

من أساطير الاغريق

أرفيوس الموسيقى
أو
رحلة الى الدار الآخرة

بقلم الأستاذ دريني خشبة

أرفيوس ! لسان الطبيعة ، ونَجِيُّ الآلهة ، ووحى السماء إلى جى[(١)] ، وصاحب القيثارة ذات الرنين . . . والأنين

كان يعزف ، فتشيع الحياة فى الصخر ، ويقف أبوللو العظيم فى مركبته الذهبية[(٢)] ؛ مُطِلاً برأسه من عليين ، يسمع ويطرب وكذلك كانت تصنع ديانا ، فلطالما كانت تنزل من مركبتها الفضية[(٣)] فى أعلى أجواز السماء ، لتلبث هنيهة بباب أرفيوس ، تتزود لرحلتها الليلية المرهقة ، من مشرق الدنيا إلى مغربها

والأشجار ! إن لها لجذوراً متغلغلة فى أطباق الأرض ، ومع ذلك فقد كانت حين تسمع أرفيوس ، تنزع اليه ، وتسير وراءه خبباً ! وكم شهد الناس حول بيته غابة من الدوح العظيم ، والأيك الذاهب ، سمت اليه تلتذ من موسيقاه ، ثم هى تنصرف فى المساء فتنغرس فى أصولها ، وقد ازدادت نضارة وازدهاراً !

ومع ذاك ، فقد كان ذا غُرَّة مشرقة ، وابتسامة حلوة ما تكاد تفارق ثغره الصغير الجميل . وكان جم الحياء ؛ لم ينهر مرة أحد رواده ، أو المترددين عليه ؛ بل كان يلقى الجميع ببشاشة الاخوة ، وهشاشة الود

وكانت له زوجة أجمل من روعة الفجر ، وأفتن من وشى الأصيل ، وأندى على قلبه من أنفاس الصباح

إسمها يوريديس . . مصدر إلهامه ، ومعين عبقريته ، وجمار لحنه ، وأغنية حبه ، وأنشودة هواه . سئل مرة : ماذا تملك من الدنيا يا أرفيوس ؟

فأجاب : « قيثارتى . . ويوريديس ! »

* * *

وكانت يوريديس تجمع الأزهار البرية فى ربرب من أترابها ؛ لتصنع منها باقة مفوّفة تقدمها لأرفيوس ، وكانت كلما راقتها سوسنة أو وقعت فى نفسها زنبقة ، طبعت عليها قبلة ندية وضمتها إلى الباقة ، وهى تقول : وأنت أيضاً لحبيبى أرفيوس . . .

وبينا هى كذلك إذا أفعى هائلة تنسل من بين الأشجار ، فتلدغ قدمها الصغيرة المعبودة المطمئنة فى الحشيش الأخضر ؛ فتصرخ المسكينة صرخة داوية ، ثم تنطرح إلى الأرض ، وتتناثر الورود والرياحين التى جمعتها حولها ، كأنها تنضد سرير موتها

وتجتمع صديقاتها مذعورات ، فتعولن وتبكين ، وتحملنها إلى أرفيوس الذى يستطار من هول الكارثة ، وينخلع فؤاده من فداحة المصاب ، ويحاول المستحيل لانقاذ أعز الناس عليه ؛ ولكن . . هيهات ! لقد ماتت ، واحلولكت الدنيا فى عينى أرفيوس التعس ، وأجدبت قيثارته من ألحان المرح ، واستروحت إلى البكاء والأنين . فيا رحمتا لمن ينصت إليها ويصغى لها ! زفرات حارة تصعّدها أوتارها ، وأنات مؤلمة ينبثق منها الدم تنبعث من أنغامها !

وأرفيوس ، مع ذلك منزو عن العالم ، عزوف عن الناس ، مستغرق فى وحدته القاسية ، يفكر فى يوريديس

وصمم ألا يفقدها كما يفقد الناس أحباءهم . بل لابد من رحلة طويلة إلى الدار الآخرة . . إلى هيدز . . حيث إله الموتى بلوتو ، فيضرع إليه أن يرد عليه زوجته التى لا حياة له إلا بها

(١) جى هى الأرض فى الميثولوجية اليونانية (٢) مركبة أبوللو الذهبية هى الشمس (٣) القمر

فكرة غريبة ، وتصميم عجيب ؛ رجل من دار الفناء ، له جسم ، وفيه نفس تتردد من إخمصيه إلى ذؤابة رأسه ، كيف ينفذ إلى دار الموتى وعالم الأرواح ، ومملكة الظلال والأشباح ؟ !

لكنه أمل ملأ قلبه على كل حال ، وها هو ذا يحمل قيثارته ، ويبدأ رحلته ولا يدرى إلى أين ؟

ضرب فى الآفاق على غير هدى ، وذرع الأرجاء فى ضلال وحيرة ، حتى رثت له الآلهة ، فرشدته ، وأنارت له سبيله ؛ فاهتدى إلى ضفاف ستيكس[1] ذى الزبد ، حيث وقف شارون النوتى الجبار ، الذى يحمل أرواح الموتى فى زورقه ، يعبر بها أنهار الجحيم للقاء پلوتو العظيم

وصاح شارون صيحة راجفة حينما لمح أرفيوس ، وزمجر قائلاً : « يا ابن العدم ، ياسليل الفناء ، يامن لم تفض روحه بعد ، ما جاء بك إلى هنا ، وما تزال تتعثر فى برد حياتك الرث ، وتتكفأ فى قيد دنياك الوبيلة ؟ عد من حيث أتيت ، وإلا فوحق پلوتو المتعال لأسحقن عظامك ، ولأقذفن بك إلى ستيكس ، فيطويك اليم وتشويك الحمم . . . عد . . عد . . عد أقول لك . . ويْ . . ويكأنك لا تسمع !! »

ولكن أرفيوس يثبت غير هياب ، ويتناول قيثارته غير وجل ، ثم يعزف لحناً من ألحانه الباكية فيزلزل به أركان شارون !

شارون ! هذا الفظ ، غليظ القلب ، أقسى حراس جهنم ، يذوب رقة ويمتلىء حناناً ورحمة لما رأى وسمع ، فيهرول إلى أرفيوس مستميحاً معتذراً عما بدر منه من سوء اللقاء ، وعبارات البذاء ، ويسأله فى لين ورفق عن حاجته فيجيب : « لا شىء إلا لقاء پلوتو ! »

فيسأله شارون : « وكيف ، وهذا بدنك لا يحتمل زفير الجحيم ؟ »

فيجيب أرفيوس : « لا عليك ، ما دامت هذه — ويشير إلى القيثارة — بيميني »

فيقول شارون : « يا صاحبي أنت لا تعرف هول ما تريد أن تقتحم ، وإنى مخلص لك أمين ؛ إنك غض الأهاب ، موفور الشباب ، وإن جهنم لا تبقى ولا تذر ، وإنها أبداً ترمى بشرر كالقصر ، وإنى أمحضك نصحاً علمتني موسيقاك كيف أمحضك إياه ، وأستنقذك به من عذاب مقيم . . . ألا فلتفكر فيما أقدمت عليه ، فان من دونه مهالك ، وإن من دونه نكالاً وأهوالاً ... »

وتبسم أرفيوس بسمة حزينة ، كانت رداً صامتاً على ماحذر شارون ، ثم أعد قيثارته وانطلق يتغنى :

حملتُ جهنّماً فى بعضِ قلبى ... وفى بعضٍ جراحاتٍ فنونا
فان حذّرتنى نارا ، فانى ... أحذّر نارك الدّمعَ الهتونا
سأطفئها به حتى تراها ... تُذرّف مثله صبّاً سخينا
تخوّفنى لظاك وفى فؤادى ... لظى ممن جُننت بها جنونا
إذاً ما الحبّ إن لم يكتنفه ... غرام[1] لا يؤود العاشقينا ؟
لقد ذُقتُ البِلى فى دار عيشى ... أفى دار البِلى أخشى المنونا ؟[2]

* * *

وما يكاد يفرغ من هذه الزفرة الحارة ، حتى تتحدر الدموع من عينى شارون ، ويتقدم اليه معتذراً ، فيحمله فى الزورق ، ويخوض به عباب ستيكس ، وما يكاد يفعل حتى يرى أرفيوس إلى تغيّظ الموج وتلاطمه ، فيسأل شارون عما يهيج النهر برغم سكون الريح ، فيقول : « إنك ، وأنت من أنت ، من فوقه ، سبب هياجه واصطخابه ؛ ولو خُلّى بينك وبينه لما أنجاك منه شىء حتى تكون فى أعماقه ! ! » ولكن أرفيوس يبتسم ابتسامته الحزينة ، ويتناول قيثارته فيوقع إحدى أناته الشجية ، فيهدأ ستيكس الصاخب ، وتصفو صفحته بين دهشة شارون وشدة تعجبه !

وتطول الرحلة ، ويعبران (أشيرون) نهر العدم ؛ و(ليث) نهر النسيان ، و (كوكيتوس) نهر الآلام ، و (فليجتون) نهر الحمم واللهب ، ويصلان آخر الأمر إلى (هيدز) — دار الموتى — ومملكة پلوتو ، بعد عقبات وأهوال تغلبت عليها جميعا قيثارة أرفيوس ، بألحانها الرقيقة ، وأنغامها الباكية

(١) ستيكس هو النهر الكبير الذى يحيط بالدار الآخرة « هيدز » فى الميثولوجة ، وهو يحيط كذلك بالأنهار التى تنحصر بينها جهنم ، وسيجىء ذكرها

(١) غرام أى عذاب
(٢) الابيات مترجمة عن أصل يونانى

وتبدأ من هذا الشاطئ الأخير رحلة شاقة في ظلام دامس وحلك شديد ، في مسالك ملتوية ، وشعاب متداخلة ، لا تجدي معها موسيقى أرفيوس فتيلا ؛ وهنا يبدو له أن يقصر هذا السفر الطويل بالسؤال عن يوريديس ، كيف حملها شيرون في زورقه ، وكيف عبر بها في هذه الفجاج إلى القر الأخير ، وهل كانت تبكي ؟ أم كانت راضية بالقضاء الذي فصلها من أحبّ القلوب وأقصاها عن أعز الناس ؟ وهل حدثته عن الشاب أرفيوس ؟ أم كانت في شغل عن كل شيء بما هي فيه؟ وهل كل روح من أرواح الموتى تستغرق كل هذا الزمن في عبور أنهار هيدز وفيافيها ؟ وهل تألمت يوريديس حين كانت تعبرها ؟ . . .

وكان شارون يجيب عن هذه الأسئلة المتتابعة إجابة مستفيضة حتى وصلا الى بوابة كبيرة الحجم ، تصل إلى قصر بلوتو ! ولكن كلباً ضارياً بادي النواجذ بارز الأنياب كان رابضاً عندها ؛ فلما لمح أرفيوس ، وهو من غير الأموات ، هاج وماج ، وتوثب يريد البطش بهذا اللاجئ الممنوع !

وتنبه أرفيوس ، فحرك أوتار القيثارة ، وتغنى على أوتارها ألحانه وآلامه ؛ فثاب الكلب وهدأ ، وبعد أن أقعى قليلاً ، تقدم إلى الضيف الحبيب يلحس قدميه ، ويتمسح به . . . ويا للموسيقى !

* * *

ثم هذا عرش بلوتو ؛ وإلى جانبه زوجته الربيع ، پرسيفون(١) كسيرة القلب مهيضة الجناح ، تعلو أساريرها عبوسة قاتمة ، وتجثم على قلبها لوعة داعة . يالپرسيفون ! ويا لهذا المنفى السحيق !

ولشد ما دهش بلوتو حين بصر بهذا المخلوق الذي استطاع أن ينفذ إلى هيدز ، وفيه رمق من حياة ؛ بقضه وقضيضه ، وبجره وبجره ! !

وقبل أن ينبس بلوتو ، جثا أرفيوس لدى قاعدة العرش ، وطبع على الأرض قبلة كلها احترام ووقار ، ثم تناول قيثارته ، وطفق يتغنى بقصته الشجية ، يرسلها خلل أنغامه الحزينة ، وملء ألحانه اليتيمة . . حتى أتمها

وكانت الموسيقى ممتزجة بالغناء الحلو والشعر السامي ، قد تغلغلت في السويداء من قلبي الزوجين ؛ وكانت الرنات ، ممتزجة بالأنات ؛ والهديل ، ليس مثله هديل ، قد أحدث أثره في نفسيهما ، حتى أن دمعة مترقرقة شوهدت تنسكب على خد پرسيفون !

وفي الحق ، لقد هاجت قصة يوريديس شجون پرسيفون ، لما لحظت فيها من الوشائج بينها وبين قصة حياتها التعسة ، في هذا الملك البغيض !

وانزعج بلوتو لمجرد وسواس لج في صدره ، لما شاهد من تأثر زوجته ، وانسكاب هذه العبرة الحزينة على خدها الشاحب ؛ حتى لقد خيل اليه أن شياطين الحب قد قفزت من فم أرفيوس الخبيث ، ومن موسيقاه الشاجنة ، إلى قلبها الغض الصغير !

وقال بلوتو : « انهض أيها الشاب ، فوحق أورينوس(١) لقد كدت تكون من الهالكين ، لولا قصتك الباكية ، وموسيقاك المبللة بالدموع . والآن ، ماذا جاء بك هنا ؟ وما الذي تطلب أن ينتهي اليك من إحسان بلوتو ؟ »

فركع أرفيوس ركعة التذلل والضراعة ، ثم قال : « مولاي ! يوريديس يامولاي ؟ تأمر فتعود أدراجها معي إلى الحياة الدنيا ! »

فأجاب بلوتو : « طلبت المحال أيها العبد ؛ ولكن بلوتو الكريم ، لن يرد رجية بائس مثلك . لك ما سألت ، وستعود يوريديس معك ، ولكن على شريطة واحدة ! ألا تراها حتى تخرج من هيدز . إنها ستتبعك ، فلا تلتفت وراءك أو تغادر دار الموتى ! »

وركع أرفيوس ركعة الشكر ، ثم قال : « سأنفذ مشيئة مولاي . »

* * *

وأمر بلوتو فأحضرت روح يوريديس ، وبدأت الرحلة إلى الدار الأولى ، في ظلمات بعضها فوق بعض ، والحبيبان يدلجان خبباً وكان قلب أرفيوس يدق . . . ويدق

وإنهما ليكادان يبلغان السُدوة الأخيرة من نهر ستيكس ، حتى يوجس أرفيوس خيفة ، ويظن — ويا شر ما يظن — أن يوريديس قد ضلت سبيلها من ورائه ، فينسى شرط بلوتو ؛ ويلتفت فجأة خلفه ، ليرى أنها ما تنفك تتبعه . ولكن يالهول !

(١) پرسيفون ، أو پروزرپين ، كما يسميها الرومان ، وهي ربة الربيع التي اختطفها بلوتو لتؤنسه في وحشته في هيدز ، بعد إذ رفضت جميع الربات مقاسمته ملكه ، وقد ننشر أسطورتها قريباً

(١) أورينوس هي السماء ، أبو الآلهة ، في الميثولوجيا

لقد رأى يوريديس باسطة ذراعيها إليه ، كمن يتلمس طريقه فى الظلام ؛ وحين تراه يلتفت اليها ، فيخل بالشرط الذى عاهد ربها على تنفيذه ، تنثنى من لدنه راجعة أدراجها إلى هيدز . . . متمتمة فى صوت ضعيف خافت : « وداعاً يا أرفيوس » ! باحبيبى أرفيوس . . وداعاً . . » . فيصرخ المسكين صرخة يكون معها فى هذه الحياة الدنيا ، حياة الشقاء والآلام ! :

ويظل على شاطئ ستيكس سبعة أيام مفجعاً محزوناً . . . يحاول عبثاً أن يعود إلى هيدز . . . ولكن . . . هيهات !

ويدخل الدنيا محطم القلب ، خفق الأحشاء ، موهون القوى . . . لايطيب له عيش ، ولا يسيغ لذة من لذائذها . ويتخذ مأواه فى شعاف جبل تزمزم الرياح فى جنباته ، وتزمجر الوحوش فى غيرانه ، وتدوّى البواشق فى قننه ، ويكون كل أولئك خير صحابه ، وياما أعز الرفاق !

* * *

وتلقاه نسوة ممن اعتدن التخلف اليه فى أيامه الماضى ؛ فيحتلن عليه ليعزف لهن من ألحانه ؛ ولكنه يعزف عنهن ويشيح ؛ ثم يفر منهن ، فيقتفين أثره ؛ فيمعن فى الفرار ، فيتضايقن ، ويصمينه بسهامهن ؛ ثم يرجمنه بالحصى المسوّم ؛ والحجارة الثقال ؛ حتى يموت :

ويسمعنه إذ هو يجود بروحه يقول : « يوريديس . . يوريديس ! »

فتردد الأصداء نداءه الحزين : « يوريديس . . . يوريديس ! »

وماتزال الأشجار والأطيار تهتف إلى اليوم هتاف موسيقارها المفجون : « يوريديس . . . يوريديس ! »

* * *

وانطلقت روحه البريئة تعبر بدورها ستيكس ، وأشيرون ، وليث ، وكوكيتوس ، وفليجتون . . . فيتلقاه شارون الجبار باسما هاشاً محيياً . . ويجلسان معاً فى الزروق ، يقصان ذكريات الماضى . . . القريب ! ويتلقاه الكلب عند البوابة ، فيهرول اليه ، ويتمسح به ، وفاء وذكرى ! ويتلقاه بلوتو كذلك ، فيهنئه بالعود . . . إذا كان العود أحمد ! !

أما يوريديس . . . !

دريني خشبة

صدر كتاب (فى أصول الادب) :

فى أصول الأدب

محاضرات ومقالات فى الأدب العربى

بقلم

احمد حسن الزيات

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن جميع المكاتب

وثمنه ١٢ قرشاً عدا أجرة البريد

وزارة المعارف العمومية

اعلان مسابقة

عن الحاجة الى كتب للمدارس الصناعية

تعلن الوزارة عن حاجتها الى طائفة من الكتب توضع وفقاً للمناهج الجديدة المقررة للمدارس الصناعية — وتقدم للوزارة فى ميعاد غايته ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٥

وبيان هذه الكتب وشروط المسابقة موجود بأدارة مخازن الوزارة بالقاهرة . ويمكن طلبه منها أو الاطلاع عليه بها أو بعدد الوقائع المصرية نمرة ١٤ الصادر فى ١٤ فبراير سنة ١٩٣٥